المقتطف

الجزء الخامس من المجلد التاسع بعد المئة

١٠ دسمبر سنة ١٩٤٦ — ١٦ محرم سنة ١٣٦٦

التعاليم اللاهوتية
في أصل الحيوان والانسان

في إحدى نوافذ كاتدرائية مدينة « أولم » نقش على الزجاج يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى ، يمثل فيه الواحد القهار منهمكاً في خلق الحيوانات ، وفي تلك الفترة بالذات يخرج من بين يدي العناية القدسية « فيل » كامل الأوصاف ، وهو مثقل بالدروع وعليه سرج وغطاء ، كأنه على أتم الأهبة للقتال .

ولقد وردت أمثال من هذه التصورات في مخطوطات علمية ، وفي الكتب المطبوعة القديمة ، وتجمعت كل هذه التصورات والآراء في نواة واحدة ، ظهر فيها المعبود القدير مجداً في تصوير أول إنسان من « صلصال كالفخار » منتزعاً من جنبه ، بكل مشقة وتؤدة ، أول امرأة ظهرت في الوجود .

* * *

على أن هذه النظرة العامة في أسلوب الخلق قد انحدرت إلينا من خلال الأزمان القديمة ، حيث كانت قد ظهرت لابسة صوراً شتى من آراء كونية عتيقة مختلفة الصور والألوان . فأنت ترى حتى اليوم في المعابد المصرية القديمة بجزيرة « فيلة » و « دندرة » أمثالاً تريك كيف يجبل آلهة النيل كتلاً من الصلصال فتخرج من بين أيديهم رجالاً ، وكذلك تقع في الألواح الأشورية على مثل هذا العمل منسوباً إلى آلهة بابل حتى إذا انحدرت تلك الصنوف إلى

عصرنا هذا ، وقلبت كتبنا المقدسة ، أثبت أن هذه الآراء والتصورات بعينها ، قد اتخذت قاعدة لتطور جديد أصبحت ذيوله على اللاهوت الحديث .

* * *

مضى آباء الكنيسة قانعين بأن يعكفوا على النص الحرفي الذي صيغت فيه أسطورتا الخلق المتناقضتين في سفر التكوين ، وبعد أن أفرغوا جعبة الجهد والبحث في سبيل التوفيق بين تينك الروايتين ، وأدمجوها لتكونا شيئاً واحداً ، رضوا بأن يعتبروها آخر عهد للرأي وبحث للفكر في أصل الكون وكل ما فيه .

* * *

وفي بداية القرن الرابع الميلادي وضع « لاكتانتيوس » أول قاعدة لتلك الطريقة التي لم يقصد بها من شيء إلا إخضاع كل الأشياء الأخرى التي اتخذت وسيلة لدرس الخلق ومشتثه للنص الحرفي الذي جاء في الكتب المقدسة ، وأيد فكرته في خلق الإنسان بإشارة لغوية قائلاً بأن آخر مخلوق خلق هو « الإنسان » لأنه صنع من الأرض Homo ex humo

وفي النصف الثاني من القرن الرابع بذاته أيد القديس أمبروز : St. Ambrose أسلوب النص الحرفي الذي جاء في المتون المقدسة خاصاً بالخلق ، وهو ذلك الرجل الذي أعلن في كتابه الذي بحث فيه أصل الخلق — « إن موسى قد فغر فاه وصب منه كل ما قال الله له » . ولكن رجلاً أعظم من هذين قد استطاع أن يربط هذه الفكرة باللاهوت النصراني وأن يوثق لها منه . فإن القديس « أوغسطين » في كتابه « تعليقات على سفر التكوين » قد وضع في جملة واحدة قانوناً جامعاً ظل للكنيسة دستوراً حتى عصرنا هذا ، إذ قال :

« لن نقبل منه شيء إلا إذا أيدته الكتب المقدسة بسلطانها ، لأن هذا السلطان أعظم من كل القوات التي يحتوي بها العقل الانساني» . . . على أن قوة السبك التي تأنسها في الجمل الأصلية ، قد جعلت أصداءها ترن خلال القرون المتعاقبة [1] .

وعلى الرغم من ذلك الانقلاب الكبير الذي أثاره القديس « أوغسطين » نفسه ، وتابعه فيه سلسلة من أعظم رجال الكنيسة حاولوا أن يحوروا في الآراء التي سادت في أصل

(1) Major est Scripturae auctoritas quam omnis humani ingenii capacitas.

الكون ، فان قولة « أوغسطين » قد ظلت منشية على عقول الناس أشد المشاورة طوال القرون الوسطى .

أما « فنسنت بوفيه » الدومينيكي ، ومن أكبر الانسيكلوبيديين ، فعلى الرغم من أنه مضى في كتابه « مرآة الطبيعة » يمزج آراء استمدها من أرسطوطاليس ، بآراء أخذها من الانجيل ، فانه وقف يؤيد أول الروايتين اللتين وردتا في سفر التكوين ، وأظهر الفضائل العظمى التي يختص بها الرقم « ستة » ، ليتخذ ذلك سبيلاً الى القول بأن هذا هو السبب في أن كل الأشياء قد خلقت في ستة أيام .

* * *

وفي أواخر العصور الوسطى قبل العلامة الثبت الكردينال « دايلي » كل شيء جاء في الكتب المقدسة خاصاً بالخلق قبولاً حرفياً بلا تبديل أو تحوير . وانك لا تقع في خلال كل هذه العصور المتطاولة على نزعة الى انكار شيء من هذا ، اللهم إلا فيما كتب ثقة آخر من الثقاة هو « غريغوري ريش » « Gregory Reisch » ، فقد ذكر في كتابه الذي خصه بالكلام في بدايات الأشياء ، بعد أن وضع فيه صورة من الحفر على الخشب مثلت الواحد القهار ينتزع حواء من جنب آدم ، كما مثلت كل الطبيعة المخلوقة في ظهرية اللوحة ، ما يظهره بمظهر القائل بفكرة القديس « أوغسطين » من الاعتقاد بوجود مادة سبقت بالوجود الخلق في الزمان .

وفي عصر الاصلاح الديني ولج « لوثر » بسلطانه العظيم ذلك الميدان مؤيداً فكرة قبول النصوص الحرفية التي جاءت في الكتب المقدسة ، واعتبارها النبع الأوحد لكل العلوم الطبيعية . ولقد رفض كل التفسيرات المجازية أو التصوفية التي قال بها متقدمو اللاهوتيين قائلاً :

« لماذا يلجأ موسى إلى المجاز بينما هو يتكلم في مخلوقات حقيقية أو عالم منظور يمكن أن يرى وأن يلمس وان يدرك ؟ ان موسى إنما دعى الأشياء بأسمائها الحقيقية ، كما يجب علينا أن نفعل . وإني أعتقد ان الحيوانات قد وجدت دفعة واحدة في عالم الله ، كما وجدت الأسماك في جوف البحار » .

ولم يكن تحدث «كاثاري» بفكرة النص الحرفي لرواية الخلق في سفر التكوين ، بأقل من تحدث «لوثر» . ولقد أمر الذين يخرجون على الاعتقاد بوجهة من النظر تخالف ما يذهب اليه ، بأنهم بذلك إنما ... «يسيئون الخالق ، وانهم يكرهون على تفسير من قاضٍ عادل يتسلمهم نسفاً» .

ولقد مضى معتقداً بأن كل أنواع الحيوان قد خلقت في ستة أيام كل منها ليل ونهار ، وانه لم يظهر منذ ذلك العهد أي نوع جديد على اطلاق القول . وقال بأن الطيور قد استحدثت في الماء ، ذاكراً أن هذا القول تجيزه بعض نصوص من الكتب المقدسة . ولكنه يضيف الى ذلك :

«انه اذا كان لا بد من أن يجاب على هذا السؤال من ناحية القواعد الموسيقية ، فأنت تعرف أن الماء أكثر قرباً للهواء منه للأرض»[1]

وعلل بعض الصعاب التي واجهته في فرضه الظاهر رواية الخلق كما وضعت في الكتب المقدسة بقوله ان الله : «رغب بتلك الصعوبات أن يبرهن لنا على قوته وسلطانه ، فأفرغ علينا الدهشة والعجب» .

***

ولقد تشبثت بهذه الفكرة كل العقول الفذة في الكنيسة الرومانية . وفي القرن السابع عشر أصبغ «بوسيه Bossuet» عليها من خياله عقله الكبير أنواراً كستها أبهى الحلل . في كتابه «بحوث في التاريخ العام» ، ذلك الكتاب الذي ظل القاعدة الأساسية ، لا لتعاليم اللاهوت وحدها ، بل لكل التعاليم التاريخية في فرنسا حتى عصر الجمهورية الأخيرة (الثالثة) نجده وقد عمد الى تنبيه الأذهان الى ما يعتبره آخر ما نزل به الوحي من حقيقة الخلق ، مؤيداً القول الحرفي بأن الأرض لم تخلق الا للانسان — «وان يد الله هي التي تحفظ على المادة مقاومة للفوضى نظامها المحكم المرسوم» .

(البحث بقية)

---

(١) الغرض من ذلك أن الماء ما دام أقرب الى الهواء منه إلى الارض ، والطيور سكنها الهواء ، اذن فهي مخلوقة من الماء .